القصيدة المتداخلة

أ. هلال ناجي(*)

التداخلُ لغةً: تشابه الأمور والتباسها ودخول بعضها في بعض(١).

مثلُ هذا التداخل عرفه ديوانُ الشعر العربي القديم في عدد من القصائد، من أبرزها اللاميةُ الشهيرة التي نسبت للسموءل في كثير من المصادر، كما نسبت لعبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي لاتفاقهما في الغرض والروي والوزن والقافية(٢):

وهذا التداخل الذي وقع فيه الرواة قديما له نظائر في ديوان الشعر العربي ومثالها: قصيدة الراعي النميري التي أولها:

ألا اسلمي اليوم ذات الطوق والعاجِ والدلّ والنظَر المستأنس الـ ـساجي(٣)

فقد وردت فيها ستة أبيات هي(٤):

ما زال يفتح أبوابا ويغلقها بعدي، ويفتح بابا بعد إرتاجِ
حتى أضاء سراج دونه قمر حمر الأنامل حور طرفُها ساجي

(*) باحث ومحقق من العراق، وعضو مراسل في مجمع اللغة العربية بدمشق.

(١) لسان العرب لابن منظور: مادة دخل - المجلد الحادي عشر ص ٢٤٣.

(٢) تنظر دراستنا المفصلة عن هذه القصيدة في كتابنا «بحوث في النقد التراثي» ص ٥٦- ٦٣ بيروت - دار الغرب الإسلامي ١٩٩٤.

(٣) شعر الراعي النميري بتحقيق هلال ناجي ونوري القيسي - مطبوعات المجمع العلمي العراقي ص ١١٨- ١٢٣ بغداد.

(٤) المؤتلف والمختلف: الآمدي ص ١٧٧.

يضحكن للّهو واللثّات عن برد تكشف البرق عن ذي لُجة داجِ
كأنما نظرت نحوي بأعينها عين الصريمة أو غزلان مرتاج
يا نعمها ليلةً حتى تخونهـا صوت مناد بأعلى الصبح شحاج
لمّا دعا الدعوة الأولى فـأسمعني أخذت بردي واستمررت أدراجي

هذه الأبيات الستة أوردها الآمدي منسوبة للراعي خليفة بن بشر بن عمير من بني عدي بن جناب نقلاً عن السكّري، وقال عنها ما نصه: «وهي أبيات تدخل في قصيدة الراعي النميري التي على وزنها لاتفاق الاسمين والقصيدتين».

فتداخلُ القصائد المتشابهة الغرض والوزن والروي والقافية معروف منذ القديم. وهو التفسير العلمي لهذا التدافع الكبير في نسبتها نتيجة سهو الرواة.

* * *

من هذه القصائد التي عرفت بالتداخل منظومة ضمت الأفعال المعتلة اللام مما تقرأ بالواو والياء معا ومطلعها:

قُل إنْ نسبت عزوته وعزيته وكنوت أحمد كُنيةً وكَنيته

أبيات من هذه القصيدة نسبت للأديب شهاب الدين الشواء الحلبي الكوفي المتوفى سنة ٦٣٥هـ، وعدتها خمسة عشر بيتا. وقد شرحها الشيخ بهاء الدين بن النحاس المتوفى سنة ٦٩٨هـ في كتابٍ له عنوانه «مهاة الكلتين وذات الحلتين»(١)، وأتبع شرحه بقصيدة له جمع فيها ما فات الشواء الحلبي الكوفي من الأفعال المعتلة اللام، ونظمها على روي قصيدته ووزنها، وعدة أبيات قصيدة ابن النحاس أربعة

---

(١) مهاة الكلتين وذات الحلتين: للشيخ بهاء الدين محمد بن إبراهيم بن النحاس. دراسة وتحقيق د. تركي بن سهو بن نزال العتيبـي. ط١- ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م. مطبعة المدني – القاهرة.

وثلاثون بيتا، جمع فيها تسعة وخمسين فعلاً من الأفعال المعتلة اللام مما جاء فيها لغتان: الواو والياء، وأول قصيدته:

وأسوت جرحي والمريض أسيته   وأسوت مثل أسيت صلحا بينهم

وقد شرح ابن النحاس قصيدته هذه، كما شرح قصيدةَ الشواء الحلبي التي تقدم ذكرها شرحا اعتمد فيه كثيرا من المعاجم والمصادر اللغوية.

وكان الدكتور محمد أحمد الدالي قد نهد لتقويم ونقد الكتاب الذي تولى تحقيقه د. تركي العتيبي، وتولى نشر ملاحظاته في مجلة المجمع الدمشقي(١)، وعقّب علامة الشام د. شاكر الفحام على مقال الدالي في ذيله.

وكان مدار تعليقه أن قصيدة في الأفعال التي وردت لاماتها بالواو والياء أوردها السيوطي في المزهر منسوبة لابن مالك وعدتها ٤٩ بيتا، وهي الأبيات ذاتها التي وردت في منظومتي الشواء وابن النحاس(٢). ثم ناقش الأستاذ الفحام ما قاله المحقق العتيبي في موازنته بين منظومتي الشواء والنحاس إذ قال: «وأود أن أشير إلى أن الإمام السيوطي قد وهم في نسبة هاتين المنظومتين فجعلهما قصيدة واحدة، ووهم في نسبتهما إذ عزاهما إلى ابن مالك».

إن الرئيس الجليل رد على هذا الاعتقاد بالآتي: لا يكفي في معالجة القضية المثارة أن ننسب الوهم إلى الإمام السيوطي ارتجالاً دون دليل مقنع، ولا سيما أن المحقق قد ذكر أن ثمة مخطوطة في «جستربتي» قد نسبت الأبيات إلى ابن مالك، فالسيوطي لم ينفرد بنسبة الأبيات لابن مالك.

---

(١) مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق مج ٧٢ ج١ ص ١٣٥- ١٥٩.

(٢) المزهر للسيوطي ج٢ ص ٢٧٩- ٢٨٢ بتحقيق محمد أحمد جاد المولى والبجاوي وأبو الفضل إبراهيم.

كذلك فإن بروكلمان قد ذكر أن قصيدة الشواء الحلبي هذه نسبت إلى ابن مالك في مخطوطتين ببرلين (١).

كذلك تصدى الشيخ محمد بن أبي شنب – العالم الجزائري المعروف – في مقالة نشرها في مجلة مجمع دمشق(٢)، وانتهى إلى صحة نسبتها للسيوطي.

إنه لابد من دراسة متأنية معمقة تنتهي إلى حل مقنع موثق بالأدلة في نسبة هذه القصيدة.

ودعا الدكتور الفحام الأساتذة العلماء للكشف عما ينتهون إليه في صاحب الأبيات، وذكر أن طائفة من الكتب التعليمية التي كانت تصدر في القرن التاسع عشر والنصف الأول من العشرين كانت تشتمل على القصيدة المذكورة منسوبة إلى ابن مالك، وأن المنظومة وردت في كتاب (سراج الكتبة) للشيخ مصطفى طموم وفي ختامها زيادة أربعة عشر بيتا، ولم ينسب المؤلف المنظومة لأحد. ومما تقدم يتضح أن العلاّمة الفحام نشر أضواء كاشفة حول نسبة القصيدة وترك الأمر للباحثين يحققون وينقّرون حتى ينتهوا إلى وجه الصواب.

وأقول: لقد كان تساؤل الرئيس الجليل واردا بلغة أهل القانون – فالقصيدة متداخلة حقًا ونسب بعضها للشواء وبعض للنحاس، ونسبت كلها لابن مالك، والرأي عندي: أن هذا التداخل قديم ففي مخطوطة قديمة (أرفق مصورتها بمقالتي) نسخها عالم جليل هو محمد بن أحمد بن إبراهيم القرشي الشافعي في الثالث عشر من جمادى الآخرة سنة سبع وسبعمئة، ذيلها الناسخ بالآتي: «قيل إن الأبيات الأُول التي آخرها:

فاعجب لبرد فضيلة وشيته

---

(١) تاريخ الأدب العربي - كارل بروكلمان - الترجمة العربية ج٥ ص ٥٢.

(٢) مجلة مجمع دمشق المجلد الثامن ص ٤٣٢- ٤٣٨، ٦٩٢- ٦٩٣.

من نظم الشيخ ابن مالك، وما بعد ذلك من نظم بهاء الدين ابن النحاس، رحمةُ الله تعالى ورضوانه عليهما».

وفي موضع العنوان بعد البسملة ما نصه (هذه قصيدة مشتملة على ما ينطق به من الألفاظ بالواو والياء). وإذا ما لاحظنا أن الشواء الحلبي توفي سنة ٦٣٥هـ، وابن مالك توفي سنة ٦٧٢هـ، وابن النحاس توفي سنة ٦٩٨هـ، نجد أن تاريخ نسخ هذه المخطوطة قريب جدا من تاريخ وفاة ابن النحاس، فبينهما بضع سنوات. وما ذكره ناسخ المخطوطة صواب فيما يخص نسبة أبيات ابن النحاس إليه. والخلل في الهامش مقتصر على ما نسب لابن مالك.

فالصواب: أن الأبيات الأُول - المنظومة الأولى - هي للشواء الحلبي بالأدلة التالية:

١- نسبتها إليه في كتاب (مهاة الكلتين وذات الحلتين) ص ٣٧- ٣٨.

٢- ثبوت نسبتها إليه في كتاب (البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة) لمجد الدين الفيروزآبادي (ت ٨١٧هـ) ص ١٨٢.

٣- ثبوت نسبتها إليه في كتاب «كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون» لحاجي خليفة - العمود ١٣٤٤. بالنص التالي:

(قصيدة فيما يقال بالواو والياء للأديب أبي المحاسن يوسف بن إسماعيل الشواء الحلبي المتوفى سنة ٦٣٥ هـ. أولها: قُل إنْ نسيت عزوته وعزيته.

شرحها محمد بن إبراهيم بن النحاس الحلبي المتوفى سنة ٦٩٨هـ. وسماه هذا (هدى) مهاة الكلتين. أوله: الحمد لله منطق اللسان...

٤- ثبوت نسبتها إليه بكتاب هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين ج٢. العمود ٥٥٤ وفيه ما نصه: الشواء شهاب الدين أبو المحاسن يوسف بن إسماعيل له قصيدة فيما يقال بالواو والياء.

وأما منظومة ابن النحاس الحلبي فهي ثابتة النسبة إليه بكتابه المطبوع «مهاة الكلتين» ص ٣٩- ٤١، حيث أوردها نصا وشرحها بعد ذلك، ويمكن أن نضيف إلى هذا الدليل القاطع ما ورد في هامش المخطوطة المؤرخة سنة سبع وسبعمئة المكتوبة بخط ناسخها محمد بن أحمد بن إبراهيم القرشي الشافعي(١).

وهكذا يتضح أنّ الإمام السيوطي قد أخطأ في المزهر في نسبتهما لابن مالك لوجود مصادر قديمة مطبوعة تقدم ذكرها، قد أوضحت وجه الحقيقة في نسبتهما.

* * *

لكن ما بين أيدينا من نصوص مطبوعة مثل «مجموع مهمات المتون» قد أورد القصيدة بزيادة ١٨ بيتا. ووقعت هذه الأبيات في مطلع النص ثم في نهايته، فما الرأي فيها؟

إن الحلقة المفقودة هي في: من نظَم الأبيات التي بها صدرت وذُيلَت منظومتا الشواء وابن النحاس؟

---

(١) أبو عبد الله ناسخ المخطوطة كان من كبار العارفين، نسب السبكي إليه في الطبقات الكبرى القصيدة المسماة الفرج بعد الشدة المجربة لكشف الكروب وأولها: (اشتدي أزمة تنفرجي). وهي التي طبعت منسوبة ليوسف بن محمد التوزري كان من مواليد القرن السادس الهجري وأدرك القرن السابع. تشرف بصحبته خطيب جامع عمرو بن العاص محمد بن الحسين بن عبد الرحمن الأنصاري، وممن صحبه أيضا قاضي القضاة بمصر عبد الرحمن بن عبد العلي المصري.

من أقواله: «علامة الصادق أن يفتقر بإيمانه إلى كلّ إيمان، وبعقله إلى كل عقل، وبعلمه إلى كلّ علم». تنظر طبقات الشافعية الكبرى ج٨ ص ٤٩، ٥٣، ٥٦- ٦٠ والجزء التاسع ص ١٧١.

إننا نفتقد النص المخطوط الذي يؤكد صحة نسبة هذا التصدير والتذييل لابن مالك. وما جاء في كتاب (مجموع مهمات المتون)(١)، لم يذكر فيه شيء عن المخطوطة المعتمدة، وكيف نسبت لابن مالك النصوص التي تقدم ذكرها مع الزيادة.

وبالرجوع إلى «المزهر في علوم اللغة وأنواعها» نرى السيوطي قد نسب منظومتي الشواء وابن النحاس لابن مالك، دون تصديرهما أو تذييلهما، أي دون الإضافة التي لحقتهما.

وهذا معناه أن هذه الزيادة لم تكن معروفة أيام السيوطي وإلاّ لأثبتها هي الأخرى في النص الذي نسبه لابن مالك. ولو أنها كانت معروفة أيام ابن مالك لأوردها في بعض مؤلفاته وقد وصلنا الكثير منها.

ولو أنها كانت معروفة أيام ابن النحاس لأوردها في «مهاة الكلتين» وهذا ما لم يحصل.

فالافتراض الوحيد الباقي هو: أنها من نظم بعض المتأخرين ممن جمع منظومتي **الشواء وابن النحاس** لاتفاق الغرض والوزن والقافية، ثم تراءى له تصديرهما وتذييلهما ثم نسبة القصيدة إلى أشهر من عرف بالمنظومات التعليمية على امتداد القرون المتأخرة، وهو ابن مالك الذي نظم أكثر من سبعة آلاف بيت من المتون العلمية، لا سيما أن الأبيات الملحقة يصح اعتبارها تتمة للأفعال المعتلة اللام مما يقرأ بالواو والياء أي إنها مستدركة على منظومتي الشواء وابن النحاس.

إن شهرة ابن مالك في النظم التعليمي قد طغت على منظومتي الشواء وابن النحاس، فشملتهما وما أضيف إليهما، حتى انجلى الأمر عند نشر (مهاة الكلتين).

---

(١) مجموع مهمات المتون - نشرته مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر - ط٤ ص ٥٨٠- ٥٨٤.

إن أبيات التصدير والتذييل هذه من الناحية الفنية في غاية الضعف والركة، ولا يمكن أن تنسب لعالم جليل كابن مالك ولو كان نظّاما.

لقد أفرد ابن السكيت بابا في «إصلاح المنطق» للأفعال التي جاءت لاماتها بالواو والياء ومثله صنع ابن قتيبة في «أدب الكاتب».

وقد ظهر تأثير الشواء وابن النحاس في العالم الكردي الجليل عبد الله بن محمد البيتوشي الشافعي المتوفى سنة ١٢١١هـ فَحبر منظومةً من بحر الرجز عدة أبياتها ٧٨ بيتا، وعدد الأفعال المعتلة اللام فيها (١٢٥) فعلاً، فهو إذن قد استدرك على منظومات الشواء وابن النحاس والناظم المتأخر المجهول أيضا. فعدد الأفعال في منظوماتهم ٩٢ فعلاً. وأضيف أن البيتوشي شرح منظومته شرحا لغويا دقيقًا، وقد حققها د. هاشم طه شلاش تحقيقًا علميا جيدا ونشرها في المورد العراقية(١).

وبعد: فحتى يصوبني من بحوزته نص مخطوط موثق ينسب هذه الزيادة لابن مالك أو لغيره، فإنها ستظل مجهولة الناظم، والله العالم.

---

(١) مجلة المورد - المجلد ٢٨ - العدد الثالث - ص ٨١ - ٩٤- ٢٠٠٠م - ١٤٢١هـ.

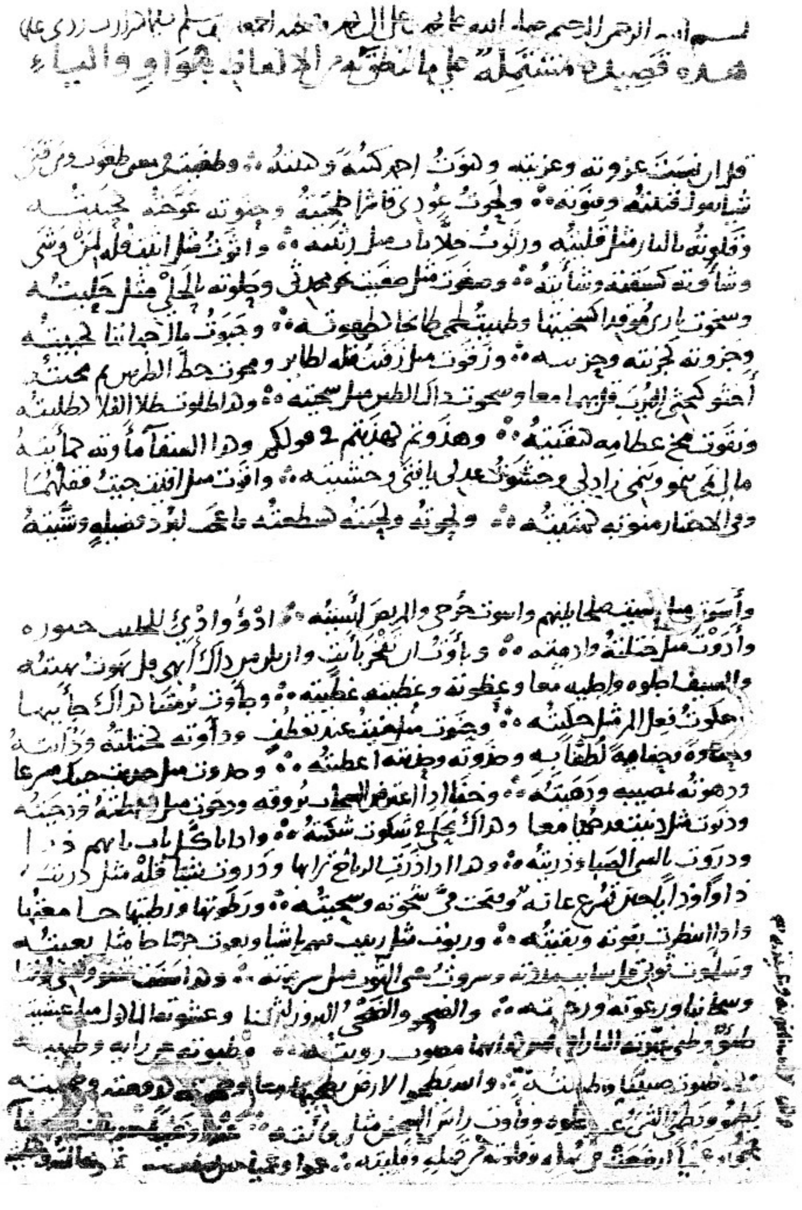

صورة الصفحة الأولى من مخطوط القصيدة المتداخلة

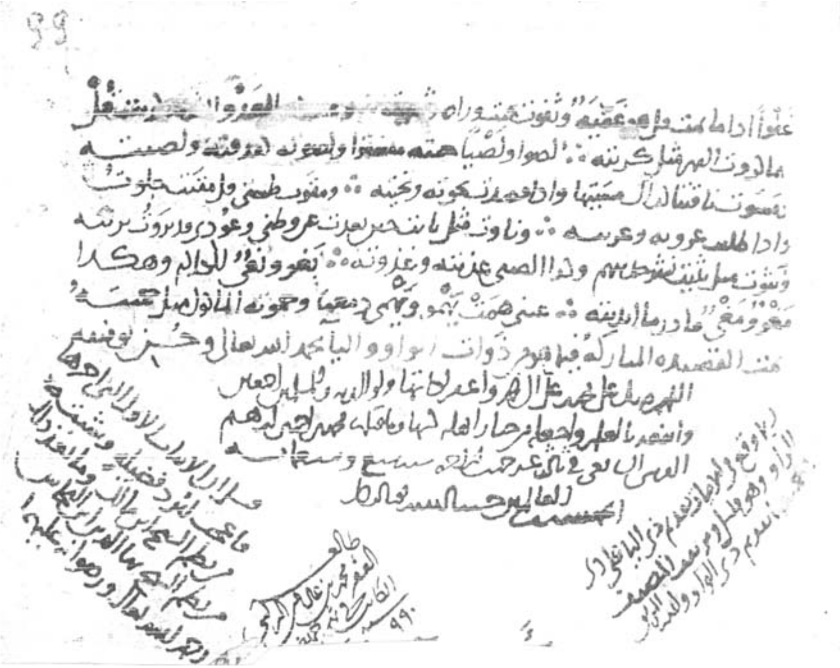

صورة الصفحة الأخيرة من مخطوط القصيدة المتداخلة